نهضة الشرق (١)

ها السادة والسيدات

جل قضى العقدين الاخيرين من اعوام حياتهِ يعبر عن افكارهِ وارائهِ بقلمهِ لسانهِ ولم يألف الوقوف على المنابر ولا اعتاد مخاطبة الجماعات يُدعى الى بة في هذا المحفل الحافل بنخبة اهل الفضل والعلم من سكان هـذه المدينة ة والوقوف على منبر اعتدتم ان تسمعوا منهُ مشاهير الخطباء فيلبي الدعوة م على الخطابة في قطر اجرى الله الفصاحة على السنة اهله وانزل البلاغة على — إنَّ رجلاً كهذا لجدير بان ينعت بالجرأة لا ان يُتهم بها فقط وخليق ال لهُ اعط القوس لباريها واترك الخطابة لاربابها ومجيديها

لكن عذري على هذه الجرأة امور ثلاثة — شوقي الى مشاركة هذه الجمعية ة بفعالها وماثرها والسابقة الى تعضيد مبدإ الاتحاد على فعل الخير وتوثيق الالفة بين العناصر . وتوقي الى زيارة طنطا والاجتماع بالخاصة من فضلائها ها وهي المدينة الاولى التي حططت فيها رحالي لما هجرت الى مصر وطني الثاني ، فيها سهلاً ولقيت فيها اهلاً . وعجزي عن اقناع حضرات رئيس هذه الجمعية رتيرها الفاضلين بانهما اخطأا هذه المرة الاختيار وسقطا على غير الخبير

اذا قصرتُ في المهمة ولم يرقكم ما اقول وكيف اقول فعتبكم عليهما واما انا ر الاجتماع بكم وشرف الوقوف بينكم وهو فوز احفظهُ في تاريخ حياتي رهُ بالمسرة والابتهاج كما تذكر ايام النيروز وتحفظ ايام الاعياد في قلوب يتمتعون بمحاسنها ومجاليها

لقد هوَّن عليَّ الداعيان الكريمان المهمة التي ندباني لها واحجمت عنها فرَقاً ؛ في اول الامر فاقترحا ان يكون موضوع الحديث — وقد بسطت لكم عن الخطابة — موضوعاً اعدهُ اقرب الامور الى نفسي والصقها بذهني ها بعواطفي . فقد حلت نهضة الشرق والشرقيين الشغاف من قلبي وخلبت

(١) خطبة للعالم الفاضل خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم القاها في الاحتفال السنوي عشر لجمعية الاتحاد والاحسان السورية المصرية في طنطا في ٣٠ ابريل ١٩٢٢

لبي فحديثها يحلو للنفس وذكراها تشرح الصدر وقد جعلها الشرقيون اليوم مناط الآمال ومحط الرحال حقق الله الرجاء وعجل عصر الصفاء والهناء ان الله اكرم مسؤول . فهذا موضوعي اليوم وبعض ما اقرلهُ فيهِ كتبتهُ هذه اليد الخاطئة من اشهر فما زادتهُ الايام الاَّ بياناً وما زادتني الاسابيع الاَّ إيماناً وإيقاناً

ايها السادة والسيدات

يجتاز الشرق الآن عصراً سيظل مذكوراً في عصور تاريخهِ ويقطع مرحلة لا ابالغ اذا قلت انها من اعظم مراحلهِ شأناً وابعدها مدى واعظمها وقعاً في النفوس — نفوس اهلهِ ونفوس البعيدين عنهُ . فالذين يعيشون منا في هذا العصر يشهدون حادثاً اجتماعياً عظيماً ويرون بعيونهم يقظة شعوب برمتها وينظرون هذا الجبار الذي نسميهِ الشرق والذي انطرح على الارض زمناً مديداً يقف الآن ويتمطّى ويشعر بما فيهِ من حيل وقوة فيستقبل بالامل بزوغ شمس الحياة التي سطعت على محياهُ وابرقت بنورها اسارير وجههِ ويسمو الى حيث الهواء الطلق والنور البهيّ المتلألىء ذلك النور الذي يفيض من منبع الانوار والذي هو حق طبيعي لجميع البشر

اجل لقد طال سبات الشرق حتى جاوز رقاد اهل الكهف وكأنما ليس بعد هذا السبات يقظة حتى قيل انهُ سبات الموت ورقدة الفناء وحتى صار الشرق مضرب الامثال في القناعة والخنوع والرضى باحكام القضاء والخضوع

اما اليوم فقد دبت الحياة وانتهى فصل الشتاء واقبل الربيع بنشاطهِ واعترت اقوامَ الشرق هزة فاخذت تردد اصداء الدعوات التي سدع بها دعاة الاصلاح . وتنادي حيّ على النهوض حيّ على الفلاح

ما مات الشرق ولن يموت ما دامت فيهِ هذه النفوس الخالدة التي تفخ الخالق فيها الحياة بصفاتها ومميزاتها . ما مات الشرق ولن يموت وفيهِ هذه القلوب الخافقة التي جعلها الله قوارير الضمائر وخزائن الالهام . ما مات الشرق ولن يموت وفيهِ اليوم قلوب تنبض بحب العمل . وافئدة تخفق بعوامل الامل . وصدور تفجرت وطنية . ونفوس اتقدت بنار الحمية القومية . وشبان ملء اثوابهم التفاني في خدمة الوطن وشيوخ تكللت رؤوسهم بالشيب ووعت قلوبهم الحكمة والاختبار . وكهول يقدمون مصلحة الوطن على كل اعتبار

ان الشرق حيٌّ لا يموت ولكن لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة فاذا نام الشرق فقد افاق من الرقاد وسيواصل العمل بالجد والنشاط الى ان يفوز بمناه ويبلغ غاية مرتجاه

واذا تفاخرت الامم بامجادها فاخرها الشرق بكل مجد من هذه الامجاد فقال صدقاً ونطق حقاً . علوم الشرق وصناعات الشرق ودول الشرق ومآثر الشرق ورسل الشرق واديان الشرق التي يدين بها العالم المتمدن . هذا هو الشرق مهد الحضارة ومهبط الوحي ومطلع نور حق اليقين .هذا هو الشرق الذي نهواهُ وهذا هو الشرق الذي اصطفاهُ رب العالمين. فاذا تفاخرت الاقوام فاخرها الشرق وهو مرفوع الرأس بلسان شاعره الكريم

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب

على اننا ايها السادة والسيدت نأبى ان نعيش على ذكر الماضي شأن بعض الوارثين المعدمين ولكننا نتمثلهُ ليكون لنا نصب عيوننا مطمح نرنو اليهِ بابصارنا وغرض نسعى للوصول اليهِ باقدامنا وإقدامنا فاذا ذكرنا امجاد اسلافنا فلا نقعل اكتفاء بما كان لهم من عز ومجد بل ليكون لنا من ذلك دافع يدفعنا الى العمل فلا يقال فينا « نعم الجدود ولكن بئس ما ولدوا » بل لنقول

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل كالذي فعلوا

اجل نبني وسنبني ونحن الآن بانون بما نعد لهُ انفسنا واولادنا من بعدنا ليحملوا عبء هذه النهضة التي تبشر بحسن المآل فقد ردد الشرق صوت الدعوة الى النهوض فافاق القاصي والداني وشعر الجميع ان الليل الداجي مضى وانقضى وان الصبح البهيج حلّ وقد طلعت شمس الآمال على ربوع الشرق الزاهرة فكانت هذه الضجة بعد السكون وهذه الحركة بعد الرقاد وسقطت القشور عن العيون ووضحت الغاية وظهر السبيل فمشي فيهِ الناس بين سابق ولاحق الى حيث يبلغون المنى ويدركون الغاية.

يقولون ان نهضة الشرق نهضة مصطنعة وانها نار شبت ولا تلبث ان تخمد وطفرة قصيرة العمر واماني طارت على اجنحة الخيال فلا تلبث ان تستقر على الارض يوم تتعب شعوبهُ ويحل بها الاعياء. اما الذين درسوا اخلاق الامم وطبائع

الشعوب فيرون غير هذا وهم يعلمون ان هذه النهضة من ملازمات الحياة فحيث تكون الحياة تكون

ان نهضة الشرق نهضة صحيحة سائرة بحكم نواميس الاجتماع والعمران فاذا اسعين فيها بمقوماتها وروعيت فيها هذه النواميس فالنجاح مكفول لها باذن الله

ولكل نهضة وسائل تكفل لها النجاح وكم خطوة من خطوات الشعوب لو ارم تضمن لها الفلاح . وانا في مترك السلف الصالح ما يعين على ادراك المنى وتحقيق الآمال من ثبات اتصف به بناة الاهرام . وعزة تحلى بها الاكاسرة اصحاب الايوان . ومفاخر للامويين ومآثر للعباسيين وهكذا في سحدر القرون والسنين الى اليوم الذي نبغ فيهِ محمد علي فعاد الى الشرق نشاطهُ وجدّد لمصر شبابها فكان رأس دعاة النهضة الشرقية وكانت مصر مرشدة الشرق في التاريخ الحديث كما كانت معلمة العالم في تاريخها القديم

والحياة في المخلوقات تكون في داخلها في قلبها ودمها. فليست الحياة ثوباً يلبس ويخلع . وكذلك الحياة القومية لا تدبّ الاّ من داخل اجسام الجماعات وهي قنية ثمينة لا تباع ولا تعار . ولا تصان الحياة الاّ اذا بذل في صونها ما يضارع قدرها ويتكافأ مع رفيع مقامها في العيون

فقل لمن يريد البقاء من الشعوب عليكم بالثبات والعمل والاتحاد والاخلاص والتفاني في خدمة الوطن فانها خير ما تتوسل بهِ الامم في جهادها . وخير ما تخلف بعدها لاولادها واحفادها

ان العالم ينظر اليوم الى نهضة الشرق بعين المعجب وبعين المنتظر الرقيب وسيحكم العالم على هذه النهضة واصحابها بما يرى من نتائجها وفعال القائمين بها في خدمة الأوطان وحمل عبء الحضارة . ولقد سكت الشامتون عنا ولكنهم لا يلبثون ان ينطقوا اذا شاهدوا من هذا الشرق تقاعداً او تقهقراً ورأوا عوامل التفريق تفصم عرى الوفاق ومعاول التقسيم والتخريب تعمل في قواعد الارتباط والاتحاد

نحن الشرقيين من ابناء هذا العصر امناء على ميراث انحدر الينا فاضاع بعضنا بعضهُ فعلينا ان نرد ما ضاع وان نسلم الوديعة لمن يأتي بعدنا كاملة سليمة فلا يتهم الخلف السلف بالتهاون والقصور

وضح الطريق فليسلكهُ السالكون . فلقد كان اعظم ما هدّ اركان صرح عمراننا بدّل عزنا ذلاً ورفعتنا خفضاً امور ثلاثة الجهل والانقسام وتقديم المصلحة لشخصية على المصلحة العمومية والا فان الشرقيين لم يضيعوا ما فيهم من ثاقب لعقل وصافي الطبع وقوة البدن وحب الارتقاء والنشاط في العمل فلما فشا فيهم لجهل واطفئت مصابيح العلم وضرب الانقسام اطنابهُ في بلدانهم وتفرقت الكلمة وقدمت الاعتبارات الشخصية على المصالح القومية ضربت على الشرق المذلة وحاق به ما حاق من الانحطاط الذي جعل ابناءهُ يتحسرون على فات من عز ومجد ورفعة ومقام تحسراً بدا في اشعارهم واغانيهم وحكاياتهم وثيابهم وحفلاتهم وافراحهم حتى في مآتمهم واتراحهم بما فيها من يأس وقنوط

كنا نقول عبس لنا الزمان ونحن الزمان وكنا نقول جارت علينا الايام ونحن هذه الايام فبايدينا طعنّا انفسنا في صدورنا. ونحن الجانون على انفسنا بتوانينا وقصورنا

اما اليوم فقد اخذ الماضي ينصرم باحزانهِ فابدل اليأس بالرجاء وصرنا نتوقع بعد الشقاء الهناء فنحن في طريق الارتقاء سائرون فلا رجعة اليوم ولا قهقرى بعد الرحيل

لا يأس بعد اليوم فاليوم يرفع الشرق لواء العلم فينشرهُ على ربوعهِ ويشرع مناهل العرفان لابنائهِ وبناتهِ ليغترفوا ما فيهِ شفاء النفوس وغذاء العقول استعداداً للنزول الى حلبة المناظرة العالمية. واليوم يصدع داعي الحق في انحاء الشرق يدعو الى الاتحاد الاتحاد والتضافر التضافر والتعاون التعاون على الخير والفلاح والنجاح. وقوميات مستقلة كل قومية في بلادها تجمع الجميع رابطة الشرقية التي توثقها الجنسية والعواطف والغيرة والتقاليد واللغات وسائر هذه العرى التي يمتاز بها الانسان عن سائر المخلوقات

واليوم يعلم ابناء الشرق ان قوة الفرد تزداد بقوة الجماعة وان الجماعات من الفرد وان القوة كل القوة انما هي بعقد الخناصر وتقديم المصلحة العمومية على المصلحة الخصوصية

اقول هذا لا على سبيل الارشاد وايراد ما تجهلون ولكن على سبيل

الذكرى والفخر والتنويه بما صرنا اليهِ بفضل الله وجهاد المجاهدين

ايها الشرقيون ان لكم في ذمة الدهر حقاً فلا انتم بتاركيهِ ولا هو بضائع وانتم وراءهُ طالبون فتدرعوا بالصبر واستعينوا بالحكمة والرشد واختاروا طرق الصواب والسداد وفوقكم ربٌّ يرعاكم وعناية تقيكم فلا تيأسوا ولا تجزعوا وايقنوا ان المستقبل لكم طال زمان حلولهِ او قصر وثقوا ان لكل امرىء ثمرة مسعاهُ وان كل من سار على الدرب وصل

وانتم تسيرون اليوم في طريق النجاح ولو انكم لا تشعرون وطريق النجاح في جميع الاعمال طريق شاق وعرٌ يكابد سالكهُ المشقة ولكن لهُ من صدق يقينهِ وحسن ايمانهِ بصحة قصدهِ ما يشد عزيمتهُ ويضاعف همتهُ. ومهما طال عليكم الطريق فاعلموا انكم بالغون ما تشتهون ما دمتم عاقدين النية على خدمة اوطانكم واقوامكم بصدق الولاء والعزم الصحيح

وتزودوا لطريقكم هذا بالاتحاد وكونوا اخواناً في السراء والضراء واعلموا ان القرن العشرين سيكون عصر الشرق ونهضتهِ. ومظهر يقظتهِ. وجلاء قوتهِ. واذكروا ان اشد حلك الليل سواداً ما كان قبيل طلوع الفجر. والله يكلاكم بعين عنايتهِ ويلهمكم السداد والرشاد في سيركم وجهادكم الى ان تكلل مساعيكم بالنجاح فيسترد الشرق بفعالكم مجدهُ الخالد ويستعيد مقامهُ الرفيع ويرفع رأسهُ ذاكراً لكم تفانيكم في خدمة الاوطان وهيامكم بحبها وسعيكم لاعلاء شأن القومية الشرقية التي ما التمست غير العدل ولا رامت غير الانصاف

ومن اتيح لهُ منكم ان يشهد سطوع شمس الحرية والاستقلال ونشر لواء القومية على ربوع الشرق العزيز فليتذكر الذين تقدموهُ وجاهدوا في بلوغ ذلك اليوم وليحفظ لهم جميل الذكر ولينقش لهم حسن الاثر بما يبدي من التفاني في اعلاء منار البلاد ورفع مقامها واعداد الخلف لحمل اعبائها في عصور التقدم والارتقاء

وردّوا الشرق الى ما كان. مهد الحضارة ومطلع نور الحق واليقين

خليل ثابت